**\_ المحاضرة الثانية عشرة:**

**الكتابة النسائية في المغرب العربي**

**\_ مدخل:**

\_ أثارت مصطلحات الكتابة النسائية/ النسوية، أدب المرأة، أدب الأنثى جدلا واسعا بين رافضي استعمالها ومؤيديها، وهي من المصطلحات الإشكالية التي شغلت الساحة الثقافية، ولا يتسع المقام للخوض فيه. غير أنه يجدر بنا الإشارة إلى أنها مصطلحات دالة على ذلك الأدب الذي يركز على مسائل تحرير المرأة وإدانة ما لحقها من ظلم اجتماعي، سواء كانت الكاتبة امرأة أو رجلا. وهو ظاهرة أدبية حديثة أفرزتها تيارات الحداثة وما بعد الحداثة في علاقتها بالتحولات الاجتماعية التي طالت المجتمع الإنساني منذ خمسينيات القرن العشرين كانشغال نقدي وسؤال معرفي، سعت فيه هذه الكتابات إلى بلورة مفاهيم جديدة لاستعادة الهوية الأنثوية وإبراز خصوصياتها. فكيف كانت الكتابة النسائية في المغرب العربي؟ وما هي موضوعاتها وخصوصياتها وروّادها؟

\_ قبل الإجابة عن هذه التساؤلات ننبّه إلى أنّ الرواية النسائية المغاربية ظهرت متأخرة عن الروايات التي كتبها الرجال، بسبب الوضع الاجتماعي الخاص الذي عاشته النساء، وخاصة مسألة التعليم، حيث لم يكن متاحا إلا لفئة قليلة منهن، ناهيك عن أغلال التقاليد والنظرة الدونية للمرأة التي تحصر دورها في البيت، بالإضافة إلى حصار الظروف الاجتماعية والاقتصادية وغيرها.

وعليه يمكن أن نشير إلى بعض الروايات النسائية التأسيسية مثل ففي المغرب ظهرت " الملكة خناثة" لآمنة اللوة (1954) و"غدا تتبدل الأرض" لفاطمة الراوي (1967) و" النار والاختيار" لخناثة بنونة (1969) و" يوميات مدرسة حرة " لزهور ونيسي (1978) و"آمنة " لزكية عبد القادر (1983) و" مراتيج" لعروسية النالوتي (1985). ثم بدأت الكتابة الروائية النسائية في التدفق كما وكيفا وعرفت تحولا واضحا على مستوى الوعي والتقنيات واللغة والموضوعات.

**\_ موضوعات الرواية النسائية:**

**\_ الظلم الاجتماعي**: تمحورت جل الروايات النسائية حول المعاناة الاجتماعية والقهر وأشكال التمييز التي كابدتها المرأةعبر تاريخها. وتعدّ هذه القضية مركز اهتمام الكاتبات، إذ تشكّل أهم الأسئلة التي تدور حولها الكتابات النسائية. ويمكن بدءا التعريج على رواية " غادة أم القرى " لأحمد رضا حوحو (1947) وعلى الرغم من أنها تعدّ مجرد محاولة روائية على المستوى الفنّي ، فإنها من ناحية الموضوع أول الروايات التفاتا إلى قضية المرأة ، تجلى ذلك في الإهداء الذي خصّه الكاتب للمرأة الجزائرية في ظل الوضع الاجتماعي المزري الذي تعيشه (موضوع الرواية يدور حول وضع المرأة الحجازية). ولعلّ هذه الالتفاتة تصب في إطار الرؤية الإصلاحية التي انخرط فيها الكاتب بوصفه أحد أعضاء جمعية العلماء المسلمين. وكما هو معلوم فالمرأة قد سلبت من أبسط الحقوق وأهمها التعليم والعمل والخروج وحقّ اختيار الشريك...الخ، لذلك اشتغلت النصوص الروائية على مثل هذه الموضوعات منذ البداية، لارتباطها بارتفاع مستويات الوعي الاجتماعي، وعملت على تعرية الواقع بنقد التقاليد البالية، التي كرّست الهيمنة الذكورية

وأقصت المرأة من المشاركة في مختلف أوجه الحياة وأنشطتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وهذا النوع من الروايات نجده لدى جلّ كتاب الرواية المغاربية (رجالا ونساء)، إذ الغاية منه هي نقد الواقع وترقية المرأة، وقد توافق ذلك مع خطاب السلطة ومشاريعها وبرامجها. غير أنّ صور المرأة في الرواية المغاربية خاصة منها النصوص المؤسسة قدمت صورة تقليدية نمطية، تمثل العجز والصمت والخضوع ، فإن بعضها من جهة أخرى تقدم دور المرأة أثناء مقاومة الاستعمار، حيث تجلى ذلك مثلا في روايات محمد العروسي المطوي مثل (حليمة) و " يوميات مدرسة حرة" لزهور ونيسي و" غدا تتبدل الأرض" لفاطمة الراوي و" النار والاختيار" لخناثة بنونة.

\_ **موضوعة الحب:** تمثّل موضوعة الحب إحدى الموضوعات الأثيرة في الكتابة الروائية النسائية، لأسباب نفسية واجتماعية. وقد ساهمت الرقابة الاجتماعية والتقاليد في تصنيف هذه الموضوعة ضمن المسكوت عنه، لهذا انخرطت جلّ الكتابات النسائية في ذلك سواء كموضوعة مركزية أو هامشية في النص الروائي. وتمثّل روايات أحلام مستغانمي (ذاكرة الجسد \_ فوضى الحواس \_ عابر سرير \_ الأسود يليق بك) منطلقا لهذا الاتجاه الذي أنتج الكثير من النصوص التي تركز على تصوير عاطفة الحب، وموقع المرأة من ذلك، متمثلة علاقة الحب بالحرية، وبالجسد وبالواقع الاجتماعي، لذلك نجد الروايات المتمثلة لهذا الاتجاه تختار بطلتها أو الساردة فيها امرأة تسعى لإثبات وجودها من خلال الحب. وقد ظهر ذلك في الكثير من النماذج مثل " نخب الحياة \_ الكرسي الهزاز " لآمال مختار و" مراتيج" لعروسية النالوتي " اكتشاف الشهوة\_ تاء الخجل " لفضيلة الفاروق. غير أنّ هذه المقاربات في الغالب تصطدم بالآخر / الذكر، بكل ما يمثّله من قيم اجتماعية وسلطة ذكورية، تعكس ثقافة المجتمعات المغاربية التي تكرّس التفوق الذكوري ودونية الأنثى. ومن جهة أخرى فإنّ موضوعة الحبّ تصطدم بالمحظور الاجتماعي والديني، إذ أنّ العلاقة بالآخر/ الرجل، تكشف عن علاقة الأنثى بجسدها، وعن حدود منح الجسد، وبالتالي تبرز من خلال السرد إشكالية الحرية. ومن هنا نجد أن السرد النسوي يكشف عن جملة من التناقضات، وعن تشكلات الجسد الأنثوي تشكلا ثقافيا، تحدّده النظرة الاجتماعية التي تصدر عن الذكر المهيمن. كما تبرز من خلاله مقاربة الكاتبات لموضوعة الجنس من خلال إبراز إشكالية الجسد كمعطى سردي له دلالات ثقافية.

**\_ الهوية الأنثوية:**

سعت الرواية النسائية إلى إبراز الهوية الأنثوية بخصوصياتها النفسية والجسدية، مبرزة اختلافها عن الذكورة، لكن في الوقت ذاته تعرضت لمسألة السلطة الذكورية وتأثيرها على نظرة المرأة لذاتها ولجسدها ، وعلى تكريس النظرة الدونية للمرأة ويمكن تقصي ذلك في مجموعة من الروايات النسائية المغاربية، حيث نجد فضيلة الفاروق في روايتها "تاء الخجل" وانطلاقا من العنوان تقارب إشكالية الأنوثة التي تميزها في اللغة العربية تاء التأنيث أو كما أسمتها الكاتبة " تاء الخجل"، لأنّ الأنثى مصدر للعار، ومن هنا بدأ تكوّن الفوارق الجنسية بين الرجل والمرأة من الحاضنة الأولى وهي الأسرة التي تحتفل بقدوم الذكر وتقهر الأنثى، وبالتالي تنشأ العلاقة المشوهة بين الأنثى وجسدها وهويتها " منذ العائلة... منذ المدرسة ...منذ التقاليد... منذ الإرهاب كلّ شيء كان تاء للخجل". هذا الخجل كما تسميه الروائية أفرز تناقضا على المستوى الهوياتي وأنتج شخصيات أنثوية ترفض هويتها، أو تتماهى مع الهوية الذكورية، وتتبنى ملامحه من خلال اللباس أو المظهر.

**\_ السرد السير ذاتي**: ويقصد بذلك تجلي آليات السيرة الذاتية في الرواية، لأن هناك فرقا بين السيرة الذاتية كفن يعتمد على الوقائع التاريخية المطعمة بالتخييل ، وبين تجلي السيرة الذاتية في الرواية، حيث يرتكز السرد النسوي المغاربي على البوح، وباعتماد الساردة أو البطلة المحورية الأنثى، يتجلى ذلك في هيمنة الضمير أنا، وفي البوح والتعبير عن التجربة الذاتية للساردة مقدمة رؤية للعالم مغايرة للسائد والمتعارف عليه، ونابعة من النضج الفني والوعي الذي تملكه المرأة الكاتبة حول اختلاف نصها وخصوصيته انطلاقا من عملية التخييل التي لا يعنيها سؤال التطابق بين الساردة أو البطلة والكاتبة بقدر ما يعنيها إعادة تشكيل العالم وفق رؤيتها الخاصة، لتكون أكثر جرأة وتحررا، من خلال الشخصيات والأمكنة والزمان التي توظفها كأقنعة لتقول ذاتها، حيث تشكل الكاتبة نوعا من الحميمية مع نصها، حيث تبرز الذات الكاتبة لتعبر عن " مفهوم دال عن رغبة المرأة في تخييل ذاتها، ليس من أجل توثيقها، أو حكي سيرة إشكاليتها التاريخية \_ الاجتماعية ، وإنما من أجل قراءتها/ تأملها، وإعادة تركيب بناء جديد حولها" وكأنّ هذا التذويت هو رد فعل وإثبات للذات الأنثوية الناهضة مقابل الذات الذكورية القامعة. وكنوع من التعويض عن الاستلاب الهوياتي الذي تعرضت له الكاتبة، أو هو نوع من استعادة الذات، ويتجلى هذا التذويت من خلال الملفوظات المختلفة التي تحيل على الذات مثل الضمير "أنا" ومحاكاة الواقع اليومي والاجتماعي، المونولوج الذي يكشف حضور الأنا باستحضار الماضي والتناوب بينه وبين الحاضر، بالاستعانة بلغة مشحونة بالإيحات ورموز، يتجلى ذلك في روايات " تشرفت برحيلك" لفيروز رشام ، و"قلادة قرنفل " لزهور كرام و" تاء الخجل " لفضيلة الفاروق و" الكرسي الهزاز" لآمال مختار وغيرها.

**\_ نزعة التمرد:** وتتجلى من خلال تدمير الواقع الظالم الذي يكبّل المرأة، بإعادة بناء واقع جديد يلغي الفروقات بين الجنسين، ويتيح مساحات من الحرية والحوار، أي بناء واقع متوازن، تتخلخل من خلاله البنية الاجتماعية القائمة على الاستلاب الذكوري، وإبراز دور الأنثى في صياغة هذا الواقع، بتقديم نماذج أنثوية متحررة من ربقة التقاليد ومن السلطة الذكورية، تتسم بالنضج والوعي، تسعى للتصالح مع ذاتها، ولاكتشاف ذلك يمكن العودة إلى روايات أحلام مستغانمي وربيعة جلطي ( شارع جميلة بوحيرد \_ نادي الصنوبر) ونماذج أخرى تتجلى من خلالها الثورة على التقاليد وكسر التابوهات . حيث أصبحت الكتابة الروائية وسيلة للتعبير عن الثورة والتمرد على القيم، ففي رواية "نخب الحياة " لآمال مختار اختارت الكاتبة الجسد معبرا للتمرد ومظهرا من مظاهر التحرر، كما تبرز إشكالية أخرى تتمثل في موقع الجسد بين الشرق والغرب، الشرق باعتباره رمزا للاضطهاد والغرب باعتباره رمزا للحرية، غير أن البطلة تستكشف حقيقتها وحقيقة جسدها من خلال الوعي الجديد الذي تكتسبه بهجرتها إلى الغرب، أين تكتشف زيف وعيها، حيث تتعرف إلى نوع آخر من العبودية/ كانت تعتقد أنه حرية يتمثل في عبودية المادة ، بما في ذلك الجسد. وكذلك الأمر بالنسبة لعروسية النالوتي في روايتها (مراتيج) ومسعودة أبو بكر في روايتها " طرشقانة) و "لحظات لا غير " لفاتحة مرشيد، حيث يقدم الجسد مرادفا للحرية.

**\_ اللغة الشعرية:**

من بين أهم خصائص الكتابة النسائية توظيف اللغة الشعرية، بحيث اتسمت هذه اللغة بخصائص جمالية، برز فيها الجانب الاستعاري والمجازي بصورة واضحة، ولذلك مبررات كثيرة منها أنّ بعض الكاتبات هاجرن من الشعر إلى الرواية وأولهن أحلام مستغانمي التي كانت واحدة من شاعرات السبعينيات، وبالتالي طغى على رواياتها طابع الشعر، بما فيه من ظلال وإيحاءات وتكثيف، وتعدّ هذه الشعرية إحدى العوامل المساهمة في شهرتها، والتي فتحت الباب أمام الكثير من الكاتبات لاتباع مسارها، بالاشتغال على اللغة باعتبارها مكونا سرديا هاما في المتن الروائي. كما يمكن أن نعدّ اللغة الشعرية نوعا من القناع الذي لجأت إليه الكاتبات للتعبير عن المحظورات الاجتماعية والدينية، كتوظيف المجاز للتعبير عن الجنس بدلا من توظيف اللغة الصريحة المباشرة، كما هو الحال في روايات نبيلة عبودي ( كاليفورا) سامية بن دريس ( شجرة مريم) زكية علال ( عائد إلى قبري) و " لحظات لا غير" لفاتحة مرشيد و " زهرة الصبار" لعياء التابعي.

**الخاتمة:**

تمثلت الرواية النسائية المغاربية مجموعة من الموضوعات، ذات الصلة الوثيقة بالواقع الاجتماعي المغاربي، وبموقع المرأة داخل هذا الواقع، ومنه حاولت الكاتبات الإطاحة بهذا الواقع القاهر وإعادة بنائه روائيا، بخلق عالم جديد ورؤية للعالم مغايرة للسائد، صادرة من وجهة نظر نسوية لها خصوصيتها وهويتها، ومن ثمّ فقد تميزت الرواية النسائية بكثير من الخصوصيات، سواء على مستوى التقنيات كالانخراط في التجريب وتوظيف اللغة الشعرية ، أو على مستوى الموضوعات كالتمرد على التقاليد الاجتماعية ومقاربة موضوعات الحب والجسد وغيرها. وما ذكرناه من خصائص هو جزء فقط منها، ذلك أن الرواية النسائية ذات توجهات مختلفة، توزعت بين الاجتماعي والتاريخي في محاولة من الكاتبات لفهم الواقع وتمثله على المستوى المحلي وإعطائه أبعاد عالمية وإنسانية